الفكر الحركي الإسكاتولوجي
بين أهل القبلة وأهل الكتاب

أبو الفداء ابن مسعود
غفر الله له

الفكر الحركي الاسكاتولوجي [1]

بين أهل القبلة وأهل الكتاب

الحمد لله وحده، أما بعد فقد يعجب الكثيرون إذا قلنا إن ثمة مشابهة منهجية كبيرة بين الحركيين من أهل القبلة والصهاينة من أهل الكتاب. لكن إذا تدبروا وتأملوا فسينجلي لهم الأمر، وسيتبين لهم أن الصهاينة هم في الحقيقة الحركيون من أهل الكتاب. ومفتاح تصور تلك الدعوى كما هو واضح، أن نحرر تعريفا واضحا للحركية.

الحركية، فيما يناسب المقصد من هذا المقال من تعريف، هي ذلك المنهج الذي يعتقد أصحابه، على خلاف ما تدل عليه نصوصهم الدينية تحقيقا، أنهم مكلفون بإقامة دولة كبرى في الأرض، بخلاف جميع الدول القائمة فعلا، التي انتشر فيها أهل ملتهم واستقروا فيها، بحيث تتحقق بها نبوءات آخر الزمان في دينهم، فلا يزالون يتحركون في

---

[1] الإسكاتولوجي Eschatology مصطلح فلسفي عصري يراد به ما يتعلق بنهاية الزمان، أو نهاية العالم، عند أهل الملل. وموضوعه ليس محصورا فقط في أهل الملل المثبتة للصانع، بل تجده كذلك عند الملاحدة على صور شتى، قد تكلمت عليها بتوسع في كتابي "معيار النظر" حيث الكلام على المستقبلانيين والتارنسيومانيين ومن شاكلهم.

السر تارة وفي العلانية تارة، ويتآمرون ويدبرون ويخططون، سعيا إلى تحقيق تلك الدولة، ثم إلى توسعتها حتى يكون لها العلو على سائر أهل الملل !

وهو منهج خارجي في كل ملة يظهر فيها، لأن أصحابه لا يبالون بما عليه المجتمعات القائمة التي يعيش فيها أهل ملتهم من نظام سياسي قائم، كيفما كان، بل قد يضطرون للثوران على ذلك كله إن لم يجدوا منهم موافقة على مطامعهم التوسعية التي يروجون لها باسم الدين!

وقد احترزت في التعريف بقولي "على خلاف ما تدل عليه النصوص"، وقولي "بحيث تتحقق بها نبوءات آخر الزمان" وقولي "يتحركون في السر"، من دخول ما في شريعة الإسلام من جهاد الطلب، ومن مطلب توسعة الدولة المسلمة بالسيف والقوة الظاهرة حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض، كما حققه المسلمون فعلا على امتداد القرون بالغزوات والفتوحات. فإن هذه الدول القائمة للمسلمين في الأرض، هي نتاج العمل القديم بنصوص الشريعة فعلا، في الغزو وجهاد الطلب، وإن تعددت وتنازعت بل وتقاتلت فيما بينها، كما جرى في القرون المتأخرة. وما يشرع من جهاد

الطلب اليوم فهو منوط بأئمة وأمراء تلك البلاد على تعددها، لا بعصابة منشقة عن جماعة المسلمين في جميع تلك البلدان، ترمي إلى أن تسقطها وتعلو فوقها كلها جميعا، في جميع الأرض، بدعوى تأسيس دولة الخلافة الموحدة التي يبايَع فيها للمهدي في آخر الزمان! هذا المطلب الأسمى الذي يتحرك لأجله أولئك الحركيون في أهل القبلة، وهم لا علاقة له بنصوص الملة ولا بواقع الأمة! فالله تعالى لم يكلف أئمة المسلمين بعدما تعددوا في الأرض، وأصبح لكل واحد منهم بيعته على رعيته، في رقعة مستقلة من الأرض، ولكل واحد منهم جيشه وشوكته وسلطانه، لم يكلف أحدا منهم بأن يقاتل جيرانه من المسلمين حتى يجمعهم تحت إمامة رجل واحد! هذا لا وجود له لا في الكتاب ولا في السنة! والعلماء الذين قالوا إن الإمامة العظمى واجبة في الأمة، إنما أرادوا بذلك إذا تيسرت واتفق المسلمون عليها، وأمكن أن يبايع المسلمون كلهم إماما واحدا، دون أن يخرج كل فريق منهم على إمام بلده الذي تجب عليهم مبايعته! لو قدرنا أن اتفق أئمة جميع بلدان المسلمين، واتفق أهل الحل والعقد فيها جميعا، على أن يصيروا ولايات تحت إمام واحد تبايعه الأمة كلها، فحينئذ وحينئذ فقط تصبح

تلك البيعة واجبة على الجميع، وإلا فلا خروج على إمام ممكن متغلب، ولا يجوز ذلك لأحد بإجماع العلماء !

فهل يمكن ذلك أو يرجى وقوعه؟ هل يمكن أن يتفق سائر الأئمة الممكنين في بلادهم، من ملوك ورؤساء وأمراء، يتفقوا جميعا، ويوافقهم أهل الحل والعقد في بلادهم، على تنصيب إمام واحد يكونوا جميعا ولاة تحت إمرته، وتكون له بيعة الأمة كلها؟؟ هذا لا يمكن ولا يتصور له وقوع على ما عليه واقع المسلمين، وليس هو بمطلوب شرعا أن يتكلفه أحد من أئمة المسلمين أصلا، فضلا عمن دونهم من رعايا المسلمين! كيف وقد علمنا بإنباء النبي عليه السلام بأن الإمامة العظمى هي أول عروة تنتقض في عرى الدين، وأن الخلافة الراشدة على منهاج النبوة ترفع، ثم لا ترجع إلا في آخر الزمان؟ هذا كله تدبير قدري محض وإنباء بما يكون في آخر الزمان، وليس تكليفا بشيء !

فإن قيل ولكن قد جاء في السنة أن المهدي إذا خرج، فسيطلب البيعة لنفسه في مكة، وسيجيبه المسلمون كافة، قلنا: لو خرج الآن رجل يدعي أنه المهدي، وطلب

الناس إلى بيعته، فسيتعين على ملك السعودية أن يقتله، لقوله عليه السلام: "مَن أتاكُمْ وأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ علَى رَجُلٍ واحِدٍ، يُرِيدُ أنْ يَشُقَّ عَصاكُمْ، أوْ يُفَرِّقَ جَماعَتَكُمْ، فاقْتُلُوهُ"! فإن قيل فكيف يُعرف المهدي الحق حين يظهر، فالجواب أن السلف شرطوا شرطا لمبايعته يفهم منه بالمفهوم أنه محال أن يظهر والأمة على هذه الصورة التي هي عليها الآن. قال سفيان الثوري رحمه الله: إن مر بك المهدي وأنت في البيت فلا تخرج إليه حتى يجتمع إليه الناس. فإن قيل ولكن لو قعد الجميع في البيت انتظارا لأن يجتمع عليه الناس فلن يخرج إليه أحد، قلنا إن المقصود بذلك أن تعلم يقينا أنه لا بيعة معقودة حيث أنت إلا أن تُحدث البيعة له. فهذا ما به يخرج إليه الناس، وإذن تخرج أنت!

وهو ما يعني بالمقتضى أنه يأتي على حين يكون المسلمون فيه، جميع المسلمين في الأرض، بحيث يمكن أن يجيبوه للبيعة ويدينوا له جميعا بالطاعة! ومن الواضح أن هذا غير ممكن الآن، ولا يتصور وقوعه بحال من الأحوال! وهو ما يدل عند التدبر على أن الأمة لا يزال بينها وبين ظهور المهدي وقائع تاريخية جسيمة، تنهار بها عامة الدول

القائمة، بل وقد تمحى محوا، بجيوشها وشرطاتها، بأمور كونية قدرية لا يعلمها إلا الله، ثم لا يبقى بعدها في الأرض إلا بضعة آلاف من المسلمين أو نحو من ذلك، يأرزون إلى أرض الحرمين، ثم يجتمعون على المهدي إذا خرج، وتقوم بهم الخلافة الراشدة التي أنبأ بها النبي عليه السلام، بعدما تكون قد زالت الأمم القائمة، ورجع الناس إلى القتال بالسيوف والخيول. أي أنه زمان لا يكون فيه تلك التكنولوجيا العصرية بل تكون قد زالت بالكلية، وزال معها مليارات من بني آدم، وزالت معها الدول والممالك القائمة، وصار الواقع العالمي إلى صفة لا نعلم لها نظيرا أصلا، فيما اعتادته هذه القرون، ودرجت عليه !

وكل متتبع للتسارع المذهل في تكنولوجيا التسليح والتسلح النووي وتكنولوجيا الذكاء الاصطناعي وهذه الأمور، يقطع بأن المجتمع البشري بكليته تسارع به الخطى صوب نهاية حتمية لذلك كله، الله وحده يعلم كيف ستكون! تسارع نحو سقف نحن مرتطمون به لا محالة! من الكلمات التي أعجبتني مما قاله أينشتاين على أثر شروع أمريكا في بناء القنبلة النووية الأولى في التاريخ، قال ما معناه: "أنا لا أدري كيف سيتقاتل

الناس في الحرب العالمية الثالثة، لكني على يقين من أن الحرب الرابعة إذا قامت فسيكون القتال فيها بالعصي والحصى!" قلت: فالحضارة البشرية العصرية المعهودة ماضية إلى نهاية حتمية لابد منها، قربت أم بعدت، والله وحده يعلم كيف تكون ! والقصد أن السمع والعادة والحس، كل ذلك يدل على أن الله تعالى لم يكلف أحدا في الأمة بتحقيق الخلافة الراشدة الفقيدة، أو بالتمهيد لرجوع الخلافة الراشدة التي أنبأ النبي عليه السلام برجوعها، ولا كلفنا بالعمل على ذلك، وإنما تُمَهَّد أسباب ذلك تمهيدا كونيا لا يعلمه إلا هو سبحانه، ولا يقع إذا وقع إلا بأمره جل في علاه. فبدعة الحركيين كما بينا، أنهم زعموا وجوب العمل على استرجاع الخلافة، وبدعوا لذلك صورا من العمل والتخطيط السري لا محل لها في دين المسلمين إلا أن تكون من نهج الخوارج وسننهم! وهم يطمعون في ذلك في حقيقة الأمر إشباعا لشهوة العلو والسلطان عندهم، والتغلب على من يبطشون بهم من أولي السلطان في بلاد المسلمين، كما بسطنا الكلام عليه في غير موطن.

والذي يعنينا هنا بيان تلبيسهم نصوص الخبر والنبوءة المتعلقة بنهاية الزمان، بلبوس التكليف الشرعي، جهلا وعدوانا، وأن هذا الخلل المنهجي ليس مقصورا على الحركيين من أهل القبلة، بل قد وقع فيه الحركيون من الملل الكتابية الأخرى كذلك، في تصرفهم في نصوص كتبهم. فالحق أنه لا اليهود ولا النصارى عندهم في كتبهم ما يأمرهم بإقامة دولة أو مملكة كبرى لأهل ملتهم من أجل أن ينزل المسيح الذي ينتظرونه! فالحركيون من اليهود، على التعريف الذي ذكرنا، هم أصحاب الحركة الصهيونية العالمية، إذ هو ينطبق عليهم انطباقا تاما! فقد كان اليهود متناثرين في البلدان، على أعقاب الحرب العالمية الثانية، ولا يرون في دينهم ما يأمرهم على أن يجتمعوا في أرض واحدة، وإنما فهم اليهود الأورثوزوكس من نصوص التوراة والتلمود أن الدولة الكبرى التي يتطلعون إليها إنما تقوم على يدي من سموه بالمسيح المنتظر إذا جاء، لا أن إقامتها أولا هي شرط مجيئه! والذي يظهر أن تلك النصوص إنما هي خليط لما بقي عندهم من نبوءات لأنبياء أقدمين من أنبياء بني إسرائيل بالمهدي من آل محمد، صلى الله عليه وسلم، وبالمملكة التي يكون هو ملكا لها، فيملأ فيها العدل الأرض،

ويُقتل فيها الأعور الدجال على يدي المسيح عليه السلام الذي يرجع إلى الأرض فينصب قاضيا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ويكون تحت إمامة المهدي !

فالقوم زعموا بالتحريف وسوء التأويل أن المنتظر هذا هو الملك وهو المسيح وهو على ملتهم، لا على دين رسول يأتي من بعد موسى، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بحيث يكونوا مطالبين جميعا بالإيمان به والتحول إلى شريعته! ومما في كتبهم من تلك النبوءات أن ذلك الملك يصلي في بيت المقدس، وهو ما حرفوه إلى أنه لابد وأنه سيصلي في هيكل سليمان المزعوم، لأن بيت المقدس الآن القائم فيه هو مسجد المسلمين، وليس هيكل اليهود! وإذن فلابد أنه إذا رجع، فسيهدم المسجد هدما، ويقيم الهيكل في محله، الذي يزعمون أن داود عليه السلام كان يصلي فيه بصلاتهم! وهذا ولا شك تحريف فوق تحريف، راجع إلى حرص القوم الشديد على قطع كل طريق إلى الدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم واتباعه إذا بعث! لكن النصوص كلها على أي حال، جارية عندهم مجرى الإنباء لا التكليف التشريعي !

والحقّ أنّ "ثيودور هرتزل"، الذي أسّس الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كان علمانيًّا في توجهه، وكان منتمياً إلى اليهود من جهة الهوية العِرقية فقط. وقد ساءه ما رآه من ازدياد موجات الاضطهاد ضدهم في أوروبا، ولا سيما في فرنسا وروسيا وغيرهما، في زمنٍ سبقت فيه معاداةُ اليهود ما عُرف لاحقًا بفظائع الحرب العالمية الثانية. فكان يرى أنّ خلاصهم من تلك المعاناة لا يرجى إلا بإنشاء دولة ذات سيادة واستقلال، يجتمعون فيها، فتوحِّد شتاتهم وتؤمّن مستقبلهم. وهكذا نشأت الحركة الصهيو-نية الأولى بدوافع قومية عرقية خالصة، بعيدةٍ عن الدوافع الدينية.

غير أنّ هذه الدعوة قوبلت في بداياتها برفضٍ شديد من الحاخامات وعلماء اليهود الأرثوذكس، الذين كانوا يرون ـ وفق عقيدتهم ـ أنّ اليهود يعيشون في عقوبة إلهية، وأنّه لا يجوز لهم السعي إلى إقامة دولة أو العودة إلى الأرض المقدسة إلا بعد مجيء المسيح المنتظر الذي سيقودهم نحو الخلاص. وكان من الطبيعي والمتوقع مع هذا الرفض الديني المبكر، أن تظهر بين أتباع الحركة الصهيونية من المتدينين محاولةٌ لابتكار

تأويلات جديدة للنصوص التوراتية والتلمودية، بما يجعل قيام الدولة مقدّمةً ضروريةً لمجيء المسيح، عوضا عن أن يكون مجيئه هو الشرط لقيامها. ومع مرور الوقت تطور هذا الاتجاه، وبرز تيار "الصهيونية الدينية" الذي سعى إلى تقديم مشروع قومي سياسي في ثوبٍ لاهوتي يوفّق بين العقيدة اليهودية التقليدية وبين قيام الدولة الحديثة!

تلك التأويلات تلقفها فريق من النصارى البروتستنت في أوروبا وأمريكا، لتقاطعها مع اعتقادهم في رجوع المسيح عليه السلام وفي المملكة التي تكون معه في آخر الزمان. فظهرت على أثر ذلك الصهيونية النصرانية، التي جعل فيها دعم اليهود في إقامة دولة إسرائيل الكبرى هو الطريق لاستنزال المسيح عيسى في آخر الزمان! وبترويج تلك العقيدة في أمريكا، استطاع اللوبي الصهيوني هناك أن يجعل الدعم غير المشروط للكيان الغاصب في فلسطين، أمرا عقديا وتكليفيا دينيا صرفا، كما نرى عليه الأمر اليوم.

والواقع أن الحركية الإسكاتولوجية هذه توجد أيضا عند الرافضة الإمامية في إيران!

بل إنها هي أساس ثورتهم الخمينية في الحقيقة عند التأمل! ذلك أن الرافضة الإمامية لما وجدوا أنهم قد طال بهم انتظار مهديهم المزعوم القابع في السرداب، وكرهوا الاضطرار للتقية ولإظهار التعايش مع أهل السنة في إيران وغيرها، وإخفاء كثير من طقوسهم حيث يعيشون، ظهرت عندهم نظرية ولاية الفقيه، على يد آية الله الخميني، وهي نظرية يدعى معها أن ثمة وكيلا للإمام الغائب، قد اصطفاه من علماء القوم، ليكون ممثلا له، وإماما بالنيابة في زمان الغيبة، ليقيم بهم دولة كبيرة، تتوسع في الأرض وتذيق أهل السنة من الإذلال ما يستحقونه، لعل الإمام يرضى بعدما تمهدت له الأمور ويخرج عليهم أخيرا! وكان ذلك الوكيل المدعى هو الخميني نفسه، بطبيعة الحال، الذي صار هو المرشد الأعلى للثورة "الإسلامية" كما سموها! وقامت على يديه هذه الدولة الإمامية في إيران، على ما لها من مطامع توسعية معروفة .

والخلاصة التي نخلص إليها من هذا كله، أن الفكر الحركي الإسكاتولوجي هذا، الفكر الذي يروج به لدعوى أن إقامة الدولة الكبرى الموحدة لأهل الملة على أنقاض الدول الإسلامية القائمة (وهم كلهم متفقون على نقض الدول الإسلامية القائمة في المنطقة

كما ترى)، هو الطريق لتعجيل مجيء المنتظر ورجوع العدل إلى الأرض، هذا الفكر بدعة ضلالة محضة، واختراع في الدين لا يخدم إلا المطامع القومية والعرقية عديمة الصلة بالكتب الدينية التي ينتسبون إليها وبما فيها، تلك المطامع التي كانت ولم تزل تحرك أصحاب تلك الجماعات والتنظيمات والحركات والثورات، على الحقيقة، وإن زعموا أن الأمر دين !

واليوم صار عندنا، على أثر ذلك العبث باسم الدين، كيان حركي يهودي، يدعمه كيان حركي نصراني، في حربهما التي كانت واقعة لا محالة ولو بعد حين، على الكيان الحركي الرافضي الإمامي، مع وجود كيانات حركية "إسلامية" شتيتة في أنحاء الأرض، في فلسطين وغيرها، لا تزال تلك الكيانات كلها تستثمرها لصالحها بصور شتى في هدم بلدان المسلمين في هذا الزمان، إذ هو المطلب الذي يتفقون عليه جميعا إذا اتفقوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

فالله نسأل أن يبصر شباب المسلمين بذلك الفساد والإفساد، وأن يرزقهم حسن الفهم والبصيرة في الدين، وأن يقينا وإياهم شر الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله أولا وآخرا.

كتبه أبو الفداء حسام بن مسعود
في ليلة السادس والعشرين
من شهر رمضان المبارك، ١٤٤٧ من الهجرة.